الأستاذ: شريف خاصة
جامعة سطيف 2 قسم الفلسفة

المحاضرة الثالثة في مقياس إشكاليات الفكر الفلسفي العربي والإسلامي المعاصر

الموضوع: المشروع النقدي للعقل العربي عند محمد عابد الجابري.

الكفاءات المستهدفة:

- ان يتعرّف الطالب على اسس المشروع النقدي لمحد عابد الجابري وعلاقته بمشروع النهضة.
- ان يحدّد الطالب علاقة مشروع نقد العقل العربي للجابري ب التراث والمناهج الفكرية الغربي .
- ان يحلّل وينتقد فلسفة مشروع النقد عند الجابري.

تمهيد:

يعد كتاب "نحن والتراث" لمحمد عابد الجابري من الأعمال التي برز فيها معالم المشروع النقدي للعقل العربي عند الجابري، حيث يتضح من عنوانه و القضايا التي تناولها في متنه الرؤية النقدية التي تبناها في الطريق المعتمد في قراءة التراث الفكري والعلمي العربي الإسلامي، حيث سجل مؤاخذاته النقدية للقراءة التقديسية أو الاقصائية للتراث وكذلك القراءة التـأريخية لهذا التراث، وهي قراءة رغم قيمتها المعرفية والتعريفية بالتطور التاريخي للتراث العربي الاسلامي، إلا أنها كانت تفتقر للنظر التحليلي والنقدي المعرفي الابستيمولوجي، الذي يضع المبادئ والمناهج والنتائج التي تأسّس عليها هذا التراث في مختلف مجالاته إلى النقد والمسائلة الإبستيمولوجية. هذه القراءة التي من شأنها أن تبيّن القيمة العلمية والمنهجية لذلك التراث و كذلك تحدّد مدى تأثير السياق التاريخي والثقافي في تكوين العقل المكوّن والعقل المكوَّن لمختلف مكونات هذا التراث الضخم والثري في آن واحد، سواء في ما يتعلق بعلوم الشرع المتمثلة في الفقه وعلم أصول الفقه وعلم التفسير، وكذلك علم الكلام أو التراث الفلسفي بمختلف توجهاته و تجلياته ((الفلسفة في المشرق الاسلامي)) و ((الفلسفة في المغرب الإسلامي والاندلس)). وكذلك العلوم النظرية مثل الرياضيات و العلوم الطبيعية من طب وكمياء وصيدلة وغيرها من العلوم التي ساهم المسلمون في إبداعها أو إثرائها.

لكن البروز الجلي والصريح للمشروع النقي الذي تبناه محمد عابد الجابري، يتجلى في كتاب " تكوين العقل العربي" الذي بيّن من خلاله الأسباب التي دفعته إلى تبنّي هذا التوجه النقدي، وهي تندرج حسبه في تحديد المعالم والآليات الأولية لمشروع النهضة او التجديد في العقل العربي الذي أصبح يفتقد للشروط المنهجية والعلمية التي تمكنه من النهوض ثم بعد ذلك تحقيق النهوض الثقافي والعلمي ثم الاجتماعي ((الأخلاقي والسياسي)) المنشود. التي لخصها في عنصرين أولهما هو استئناف النظر في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية، وثانيهما في بدء النظر فيما يسميه " كيان العقل العربي و آلياته"[1] مع توضيح طبيعة وأسس المنهج الذي اعتمده لبلوغ هذه الغاية والقضايا الفكرية المواضع العرفية، التي سيمارس عليها هذا المنهج النقدي.

يتمحور مشروع الجابري حول مفهوم" نقد العقل العربي"، ويعني بهذا المفهوم، النقد الإبستيمولوجي للتراث العربي في مستويين :تكويني تاريخي وبنيوي نسقي وفي الحقول ثلاثة:
هي المعرفة والسياسة والأخلاق. وبهذا يتبين لنا أن منهجية الجابري في تعامله مع التراث العربي الإسلامي، وبالأخص في مجال الفكر والفلسفة منهجية بنيوية تكوينية تعتمد على خطوات ثلاث وهي:

---

[1] عابد الجابري، تكوين العقل العربي، ص 6.

أولا" :المعالجة البنيوية الداخلية "التي ترتكز على استقراء دلالات الألفاظ والمفاهيم واستكشاف المعاني والمعطيات الدلالية وتحديد القضايا وا لإشكاليات.
ثانيا" :المعالجة التاريخية "التي تعني تبيان الأبعاد التاريخية والاجتماعية والثقافية والتي أفرزت هذه الإشكاليات الفكرية والفلسفية المطروحة من قبل صاحب النص.
ثالثا" :الوظيفة الإيديولوجية "والغرض منها الكشف عن الأدوار والوظائف الإيديولوجية التي لعبها الفكر المعني في الفضاء السياسي والاجتماعي لعصره.
ومن هنا فمنهجية الجابري تقوم على مجموعة من المبادئ الرئيسية، وهي ضرورة القطيعة في الفهم التراثي للتراث، وفصل المقروء عن القارئ لتحقيق الموضوعية، ووصل القارئ بالمقروء لتحقيق الفكر ووحدة الإشكالية، والانطلاق من تاريخية الفكر برصد الحقل المعرفي والمضمون الإيديولوجي، وذلك حين التعامل مع الفكر الإسلامي والفلسفة.

تحديد الجابري لمفهوم العقل العربي وأصنافه

مفهوم الجابري للعقل العربي

مقصود" الجابري "بالعقل العربي ليس الثقافة العربية وليس الفكر العربي وما أنتجه من معرفة وإنما المقصود به الأداة والطريقة التي أنتجت هذه المعرفة[2] ، وهذه الفكرة نجدها أكثر دقة ووضوح على لسان "الجابري" ، إنه ليس شيئا آخر غير هذا الفكر الذي نتحدث عنه أي الفكر بوصفه أداة »**...** حيث يقول لإنتاج النظري، صنعتها ثقافة معينة لها خصوصيتها، هي الثقافة العربية بالذات الثقافة التي تحمل معها تاريخ العرب الحضاري العام، وتعكس واقعهم أو تعبر عن طموحاتهم المستقبلية، كما تحمل وتعكس وتعبر في ذات الوقت عن عوائق تقدمهم وأسباب تخلفهم الجابري محمد عابد ،كما أن الجابري ينظر إلى العقل العربي على أنه كيان فكري، ونهج في التفكير له خصوصية عربية وهو بهذا يحاول الانطلاق في نوع جديد من البحث والاستقصاء ووفقا لقاعدة عرفية تتحدد بموجبها الجنسية الثقافية لكل مفكر، وهو أن المثقف ينتمي إلى ثقافة معينة اذا ما فكر في بواسطتها .
وقد حدد الجابري " في الجزء الأول من كتابه " تكوين العقل العربي مفهوم العقل العربي جملة المفاهيم والفعاليات الذهنية التي تحكم بهذه الدرجة من القوة الصارمة ، » باعتباره رؤية الإنسان العربي إلى الأشياء وبطريقة تعامله معها في مجال اكتساب المعرفة مجال انتاجها واعادة انتاجها [3]

أقسام المشروع النقدي للجابري:

ينقسم مشروع محمد عابد الجابري الى قسمين منفصلين((وهكذا انقسم المشروع الى جزءين منفصلين، ولكن متكاملين: جزء يتناول "تكوين العقل العربي" وجزء يتناول تحليل" بنية العقل العربي" الأولّ يهيمن فيه التحليل التكويني، والثاني يسود في التحليل البنيوي))[4] وبعد ذلك يوّضح التفريعات التي يتأسس عليها الجزء الأوّل على مستوى البناء الخارجي بقوله((يضم هذا الجزء قسمين: الأوّل مقاربات أولية. فهو شبه المدخل والمقدمات، والثاني تحليل لمكونات الثقافة العربية، وبالتالي تكوين العقل العربي ذاته)) وفيما يخص المنهج الذي اعتمده في بلوغ هذا المطلب، فهو منهج تكوينيا تتبع من خلاله مختلف المراحل التي تكونت عبرها الثقافة العربية ككل، جاعلا نقطة البداية مرحلة التدوين ، التي تشكلت واتضحت فيها ملامح المجتمع العربي الجديد، وقد وجّه نظره الى مكونات هذه الثقافة المتمثلة حسبه في (النحو والفقه والكلام والبلاغة والتصوف ثم الفلسفة) وهذا يوّضح المدلول المقصود بعبارة العقل" العقل

---

[2] (عدي محمد ، 2016 ، ص ،5.

3 (الجابري محمد عابد، 2009 ، ص 70

[4] عابد الجابري، المصدر نفسه،ص7.

العربي بأي معنى؟ حيث نجده يرتحل عبر عدة مفاهيم محاولا إبراز معنى العقل عنده الذي يقصد فيه الثقافة والفكر والجنسية الثقافية لكلّ مفكر والخصوصية الثقافية والفكر العربي و العقل العربي، ثم العقل الفاعل والعقل السائد والعقل اليوناني والعقل الأوربي والثقافة العربية.

والهدف من كل هذه المفاهيم التي يعتمدها الجابري هو التأسيس للرؤية النقدية التي سيعتمدها على العقل العربي، وهي رؤية تؤكد التسلسل التكويني لهذا العقل، ممّا يقتضي اعتماد المنهج البنائي في قراءته تحليلا ونقدا.

تصنيف الجابري للعقل العربي

استعان الجابري في تصنيفه للعقل، بالتصنيف الذي أقامه" أندري لالاند" بين العقلِ(الفاعل)المكون و La raison constituent، والعقل المكوَّن(السائد . constutée)وسنتطرق لكل منهما على حدا بشيء من التفصيل الذي قد يكشف الغموض من عليهما.[5]

العقل(الفاعل) المكوِّن وLa raison constituant :

النشاط الذهني الذي يقوم به المفكر حين البحث والدراسة والذي "» ويقصدبه" الجابرييصوغ المفاهيم والمبادئ، وبعبارة أخرى، إنه الملكة التي يستطيع بها كل إنسان أن يخرج من "إدراك العلاقات بين الأشياء مبادئ كلية وضرورية، وهي واحدة عند جميع الناس.

العقل المكوَّن(السائدLa raison constutée) :

أما بخصوص العقل المكون(السائد)،فينظر الجابري إليه على أنه مجموعة المبادئ والقواعد التي نعتمدها في استدلالاتنا، وهي على الرغم من كونها تميل إلى الوحدة، إلا أنها الجابري تختلف من عصر لآخر كما قد تختلف من فرد لآخر[6].

إن هذا التصنيف لا يعني أبدا أن العقل (الفاعل)والعقل المكوَّن(السائد)منفصلان أو متنافران بل على خلاف ذلك تحكمها علاقة تأثير وتأثر قائمة بينهما، فالعقل السائد هو نتاج العقل الفاعل وكذلك العقل الفاعل يفترض عقلا سائدا .

لماذا العقل العربي لا العقل الإسلامي ؟

لطالما كان هناك ترابط حميم بين ما هو عربي وما هو إسلامي، بين اللغة والدين كون النص المقدس ذاته نص عربي وثقافة العرب في أغلبها ثقافة إسلامية، لكن " محمد عابد الجابري " اختار فصل هذا التزاوج والاشتغال على العقل العربي دون العقل الإسلامي، فقد أوضح أن سبب اختياره للعقل العربي هو الركود في الفكر العربي، وهو خيار استراتيجي مبدئي ومنهجي حسبه.

أما لماذا " العقل العربي " وليس " العقل الإسلامي "؟ فيرجع صاحب ذلك المشروع إلى اعتبارين؛ أولهما :أن العقل الإسلامي يضم كل ما كتبه المسلمون بالعربية وبلغات أخرى أيضا، كالفارسية مثلا وجهله الفارسية ثقافة ولغة، يقف حائلا بينه وبين هذا الاختبار.

ثانيهما :أن عبارة نقد العقل الإسلامي لا يمكن تجريدها من المضمون اللاهوتي فالجابري- يرمي إلى إقامة نقد إبستمولوجي، لا إلى إحياء علم كلام جديد، نقد يتناول أدوات المعرفة وليس العقيدة ومذاهبها.[7]

لهذا عمد" الجابري"إلى استعمال مفهوم العقل العربي عوض العقل الإسلامي مبررا ذلكاخترنا القيام بالنقد الابستمولوجي نقد آليات المعرفة وأسسها، وليس النقد :» بقوله اللاهوتي الذي يتعرض لقضايا الدين، وإننا بسبب ذلك نفضل عبارة العقل العربي عن العقل الإسلامي فهو يستبعد(العقل الإسلامي)

---

5 **لشعل أحمد / شويرب هنية مجلة التكامل ص 154**

6 محمد عابد، 2009 ص، .15

7 الجابري محمد عابد، 1991 ، ص(321 - 320

لأن هناك علماء مسلمين غير عرب لهم نتاج ضخم مكتوب بلغتهم أي داخل ثقافتهم وعقلهم هم، وليس من داخل العقل العربي الذي تشكل اللغة العربية إحدى أهم أساسياته ويستبعد كتابات المستشرقين عن التراث العربي لأنهم كتبوها وفق مفاهيم وعقل غربي ويصفها بأنها ليست أكثر من وجهة نظر غير غربية في الثقافة العربية .

هذا ويشيد" الجابري "بالعقل العربي من جانب ولكنه ينتقده في تكويناته التي شكلته على النحو الذي يبدو به سائدا، وفي جانب آخر يقارنه بالعقل اليوناني والعقل الأوروبي حيث إننا عندما نتحدث عن العقل العربي، فنحن نميزه في الوقت نفسه عن العقل:» اليوناني والعقل الأوروبي الحديث يقول(هذه العقول بالنسبة إليه – هي ما يحسب لها السبق المعرفي بطريقة علمية فلسفية– تشريعية، لأن ثقافتها لم تفكر بالعقل فقط ولكن في العقل أيضا، وتلك الدرجة من صحيح أنه كان بكل من مصر : » - – المعقولية أسمى حسبه – لأنها تعقل الذات لذاتها، يقول والهند والصين وبابل وغيرها حضارات عظيمة وصحيح كذلك أن شعوب هذه الحضارات قد مارست العلم :أنتجته وطبقته ولكن صحيح كذلك أن البنية العامة لثقافات هذه البلدان، مهد الحضارات القديمة، هي حسب معلوماتنا الراهنة يشكل السحر أو في ما معناه، وليس العلم، العنصر الفاعل و الأساس ي فيها [8]

ومن ثم يختم" الجابري "تعليقه على خصوصية الحضارات اليونانية والعربية والأوروبية إن الحضارات الثلاث هي وحدها التي أنتجت ليس فقط العلم، بل أيضا نظريات :» بالقول في العلم، إنها وحدها في حدود ما نعلم التي مارست ليس فقط التفكير بالعقل بل التفكير في العقل وعقلنا العربي داخلته بعض هذه الأنماط من التفكير اللاعقلانية زمن عصر التدوين لهذا فهو يرى أن الحاجة تدعو إلى تدشين(عصر تدوين)جديد، تكون نقطة البداية فيه :نقد السلاح، نقد العقل العربي.

نقد الجابري للقراءة المعتمد للتراث :(القراءةالسلفية).

نتقد الجابري القراءة السلفية للتراث لأنها لا تاريخية، وتفتقر إلى المنهجية، وتعتمد على "قياس الغائب على الشاهد" بشكل ميكانيكي يكرر المعرفة دون إبداع .يرى أن هذه القراءات تسقط في فخ الأيديولوجيا وتهمل السياق التاريخي والاجتماعي والسياسي للنصوص، مما ينتج عنه فهم تراثي للتراث لا يمكن أن يفضي إلى إنتاج معرفة جديدة أو مواكبة الحداثة .

- **تجاوز الأيديولوجيا**:يرى الجابري أن القراءات السلفية تختزل التراث في أطر أيديولوجية جامدة، وتتحصن بالسلف في كل ما تتعامل معه، وهذا ما سماه الجابري بـ "السلفية" كمصطلح نقدي.
- **نقد المنهج**:يرى أن العقل العربي الحديث يقع في مشكلة منهجية تتعلق بكيفية قراءة التراث، حيث إما أن يكون فهمه تراثياً ويتقوقع داخل النص، أو خارجياً وينظر إليه نظرة إثنوغرافية.
- **منهج "قياس الغائب على الشاهد**:"انتقد الجابري آلية القياس المستخدمة في القراءات السلفية، حيث يرى أنها اختزلت في عملية ميكانيكية وغير علمية، لا تنتج إلا نوعاً واحداً من الفهم، وهو إعادة إنتاج لما هو موجود دون أي إضافة أو إبداع معرفي جديد.

---

[8] محمد عابد الجابري عابد، 2009 ، ص 17 .

- **فصل المعنى عن السياق**:يؤكد الجابري على ضرورة "فصل" النص عن سياقاته الأصلية، وربط الأفكار والمفاهيم بالسياقات التاريخية والثقافية والسياسية والاجتماعية التي أنتجتها، ثم "وصلها" بالعقل الحالي لفهمها في ضوء آفاق جديدة، وهو ما يفتقر إليه القارئ السلفي.
- **الخلط بين المحتوى المعرفي والمضمون الأيديولوجي**:يرى الجابري أن القراءات السلفية قد خلطت بين المحتوى المعرفي الذي تحتويه النصوص التراثية وبين المضامين الأيديولوجية التي تحكمها، وهذا ما يؤدي إلى وهم المطابقة بين الماضي والحاضر، وإهمال التطورات الفكرية في أوروبا والعالم على صعيد المعرفة والفكر، وهو ما سار فيه العقل الأوروبي الحديث.

أولاً: الرؤية التأصيلية للأطروحة المعرفية

- الرؤية التأصيلية عند «الجابري» تصدر عن منهج واحد، ورسم أفقٍ لتلك الرؤية، فهي تقترح تأويلاً يعطي للمقروء «معنى» بالنسبة إلى محيطه الفكري والاجتماعي والسياسي، ويجعل المقروء معاصراً لنفسه على صعيد الإشكالية والمحتوى والمضمون الأيديولوجي. ومعناه بالنسبة إلى محيطه الخاص، أن يكون معاصراً لنا ولكن فقط على صعيد الفهم والمعقولية، فإضافة المعقولية على المقروء من طرف القارئ هو الذي يعطيه معناه ويسمح بتوظيفه من طرف هذا الأخير في دائرة اهتمامه كما يمكن إعادة بنائه.[2]
- وبالتالي فجدلية الفصل والوصل تعتبر منهجية للقراءة الشارحة، إلا أن المنهج ليس غاية في حد ذاته، بل هو مجرد وسيلة لفهم التراث، بحيث تكون لنا رؤية جديدة وأدوات جديدة للرؤية مع الحرص على جدلية المنهج والموضوع، وجدلية المفهوم والمادة، فالمفهوم عنصر إجرائي نستعيره من حقل معرفي ولا بد من إخضاعه للموضوع لاختبار نجاعته وفائدته، في التفكير والاتصال بالتاريخ، وفهم ما يجري في العالم.
- يجب ألّا نخلط بين الرؤية وبين النتائج، فالمفاهيم، هي مجرد أدوات للنبش وللحفر أو للتصور، ولكن هذه الأدوات إن لم تكن وراءها رؤية موجهة تحفظ لها طابعها كأدوات فإنها قد تؤدي إلى عكس المقصود.
- على الباحث الذي يطبق أدوات منهجية أو منهجاً معيَّناً على ميدان معرفي معيَّن، أن يعي أن الهدف هو الموضوع، فيوجه جهده من أجل أن يستدل بالموضوع على صلاحية المنهج .[3]لقد ارتكز المشروع النقدي للجابري على اتصال سؤال الحداثة بسؤال التراث تأسيساً على وجود حداثات وليس حداثة معيارية ومرجعية واحدة، من خلال جدلية التاريخ التي تشمل الظواهر الاجتماعية والثقافية، وما يترتب عن عملية الجدل من نفي وتركيب جديد، فإن المجتمعات العربية الإسلامية عليها أن تتحرر من السلطة المرجعية للتراث، في الفكر والاجتماع، لكي تكون قادرة على الانخراط في الحداثة.
- ولا يكون التحرر من السلطة المرجعية إلا من خلال نقد التراث بالتزام بموقف معرفي في النظر إليه، من طريقة الاستيعاب النقدي له، وذلك بإعمال أدوات التحليل المعرفي ومناهجه في دارسة التراث وتحليل نصوصه ومنظومته الفكرية .[4]إن التحدي الحضاري الغربي بجميع أشكاله وأبعاده يشكل الدافع الرئيس للذات العربية للبحث عن مخرج من التقليد الذي يكبلها للخروج من

هذه الوضعية العويصة، وقد تبنى الجابري رهاناً معرفياً يتمثل بالفصل بين المحتوى المعرفي والمضمون الأيديولوجي بمعنى أنه يجب ألّا نغفل أهمية التوظيف الأيديولوجي للمادة المعرفية التي قدمتها الفلسفة اليونانية في أهداف أيديولوجية، لم تكن إشكاليتها الرئيسية إشكالية أيديولوجية بالأساس: إشكالية التوفيق بين النقل والعقل أو بين الدين والفلسفة أو بين الشاهد والغائب.

- إن هذا الهاجس الأيديولوجي ما زال حاضراً في الفكر العربي المعاصر، سواء تعلق الأمر بتصور الماضي أو بحاجات الحاضر. ويخلص الجابري إلى أن المهم في هذه المسألة ليس ما تضمنه نظام بطليموس الكوني مثلاً الذي شكل الأساس «العلمي» لكل التصورات «الميتافيزيقية قبل «كوبرنيك» ولكن الطريقة التي قرئ بها هذا النظام نفسه ونوع الاستغلال الأيديولوجي الذي تعرض له من هذه البنية وتلك، وهو استغلال يخضع لمنطق البنية الداخلية وقوانين توازنها الذاتي.
- فلكل بنية منطقها الخاص، وهذا يوجب علينا أن نسلِّم بأن المنطق العربي غير المنطق اليوناني، وإقحامه في الثقافة العربية هو بمثابة إحداث لغة في لغة مقررة. ومن ثم فإن ربط أي فكر بالواقع ضرورة حتمية رغم أنها عملية معقدة وشاقة، إلا أنها مهمة لمعرفة قوانين التطور العامة للفكر العربي الذي يعكس صورة من صور تطور المجتمع العربي الإسلامي، عندما ينظر إلى المسألة الثقافية من منظور الخصوصية والكونية، وتداخل الثقافات.
- تبلورت الأطروحة المعرفية للجابري حول المسألة التراثية انطلاقاً من علاقة المحتوى المعرفي بالمضمون الأيديولوجي في الفلسفة الإسلامية.
- فما دام فلاسفة الإسلام، بحسب ما يقرره الجابري، وظفوا المادة المعرفية لأغراض أيديولوجية، فيجب أن نلتمس المضمون الأيديولوجي الذي وظفته فيه، ومن ثم نخلص إلى أن الجديد في الفلسفة الإسلامية الذي يجب البحث عنه يمتد في جملة المعارف التي استثمرتها وروّجتها، بل في الوظيفية الأيديولوجية التي أعطاها كل فيلسوف لهذه المعارف؛ فالتمييز بين المحتوى المعرفي والمضمون الأيديولوجي في الفلسفة الإسلامية ضروري حتى تتبين ما تزخر به من تنوع وحركة ونستطيع بالتالي ربطها بالمجتمع والتاريخ.
- إن الخطأ الذي وقع فيه مؤرخو الفلسفة الإسلامية، راجع إلى الخلط بين المحتوى المعرفي الذي روّجته والمضامين الأيديولوجية التي حملتها. في الفلسفة اليونانية كان المحتوى المعرفي والمضمون الأيديولوجي يتطوران في الجملة معاً؛ الأول بفعل التقدم العلمي، والثاني بفعل التطور الاجتماعي. فقد قطعت أشواطاً هائلة على صعيد الوعي المعرفي والوعي الأيديولوجي من طاليس إلى أرسطو، وكذلك الشأن في الفلسفة الأوروبية الحديثة. أما في والقرون الوسطى المسيحية والإسلامية فقد ظلت المعرفة الموظفة في المنشآت الفلسفية هي هي؛ الأمر الوحيد الذي كان يتغير هو الاستغلال الأيديولوجي لتلك المادة المعرفية.

ثانياً: تحرير الوعي العربي من سطوة الأيديولوجيا

- لقد حققت الحضارة العربية الإسلامية تقدماً كبيراً في علم الرياضيات، والفلك والطب، إلا أن هذا التقدم في مجال المعرفة العلمية لم يغير من الرؤية الفلسفية السائدة شيئاً يذكر، لأن ما كان يهم فلاسفة الإسلام ليس بناء تصورات جديدة على أسس جديدة، بل جعل التصور الديني مقبولاً من طرف العقل، وجعل التصور العقلي مشروعاً في نظر الدين، الأمر الذي جعل الفلسفة الإسلامية خطاباً أيديولوجياً مسترسلاً لا يحمل أي تقدم ولا يعكس أية حركة.

- فلم تكن قراءة متواصلة ومجددة لتاريخها الخاص، تاريخها المعرفي، بل كانت قراءات للفلسفة اليونانية.
- يتطلب تصحيح الوعي العربي بتاريخه، منهجاً ورؤية متكاملين للدراسة والبحث، ولكن من دون مسبقات قبلية، أو قوالب جاهزة، بل طلباً لنظرة جدلية واعية تغني نفسها بقدر ما تبعث الحياة في موضوعها. فلا بد إذاً من النظر في آليات الفكر الفلسفي في الإسلام، لكي نستقي مدى تأثيره في محيطه الثقافي والاجتماعي والسياسي والحضاري، ومدى مساهمة هذا الفكر في خدمة العلم والدفع بمسار التطور إلى الأمام.
- لقد انخرط الفلاسفة في الصراع الأيديولوجي المحتدم، في العصر العباسي، بحيث ساهم فيه الكندي والفارابي وابن سينا، إذ كانت الفلسفة بفروعها المختلفة قد امتزجت بالسياسة، واشتبكت على الخصوص بمسألة الخلافة والملك والإمامة، ومتى ذكرت الدعوة العلوية فقد ذكرت معها مباحث النظر ومذاهب الفلسفة ومدارس الحكمة والتصوُّف وكل دراسة يستعان بها على انكار الظاهر المكشوف وتعزيز الباطن المستور.
- تعتبر الفلسفة لذة عقلية في كل مكان وزمان، إلا أنها في ذلك الزمن كانت مطلباً يستمد قوته من الأشواق العقلية وقوة المساعي السياسية وقوة الإيمان بالدين.
- وكان تأثير الهند ومهد المانوية جلياً، حيث آمن الناس قديماً بحلول الروح الإلهي، وقداسة النساك والزهاد، فلا يستغرب أن ينسب إلى الامام دون ذلك من الصفات أو من الأسرار والكرامات. ومن الملاحظ بهذا الصدد أن كبار الفلاسفة الشرقيين جميعاً كانوا من أنصار الشيعة وهم الكندي والفارابي وابن سينا.
- أدركت القوى المتصارعة، أن السلطة هي بالدرجة الأولى للأيديولوجيا (أي الدين) وهي التي تصنع القوة المادية بكل أبعادها، وضمن هذا السياق قررت الارستقراطية الفارسية المتشيعة أن تخوض الصراع في مصدر قوة الدولة العربية (في المجال الأيديولوجي) سلاحها في ذلك تراثها الثقافي الديني، المبني على الغنوصية والإيمان بوجود للمعرفة غير العقل وهو «العرفان» أو الإلهام الإلهي «الوحي المسترسل» الذي لا يترك مجالاً للعقل أو للنقل.
- في قلب هذا الصراع المحتدم تحددت وظيفة الفلسفة كسلاح أيديولوجي استخدمته جميع الأطراف، المعتزلة والفقهاء وأهل السنّة والعرفانيون، فأصبح مدار الصراع حول الإمام الحق والسلطان الغاصب. فقد كتب الفارابي يصف الإمام الصالح على سنّة الفلاسفة، فجعله من الأتقياء المعْرِضين عن المادة، المقبلين على لذات الأرواح. ويقرن ذلك بما ينبغي له من الفطنة ومضاء العزيمة ومناقب العدل والعفة والفضيلة. وجاء في رسائل إخوان الصفا دعوة صريحة إلى آل البيت، لأنهم خزان علم الله ووارثو علم النبوات، تبين لهم تصديق ما يعتقدون فيهم من العلم والمعرفة .
- لقد وظفت علوم «الأوائل» داخل الفكر الشيعي، وتركز الصراع بين معسكر النقل ومعسكر العقل، وممثل القوى الاجتماعية المتطلعة إلى بناء دولة العقل.
- **القراءة النقدية للتراث**

إن القراءة النقدية للتراث التي قام بها الجابري وضمنها مجمل مؤلفاته، كان القصد منها إنجاز قراءة جديدة للتراث، الذي خضع لدراسات عديدة انطلاقاً من رؤية معينة وبمناهج مختلفة؛ ورغم تعدد المناهج والرؤى فما زلنا في حاجة ماسة إلى قراءة جديدة.

فالقارئ العربي يطلب السند في تراثه، ويقرأ فيه آماله ورغباته، يريد أن يجد فيه كل ما يفتقده في حاضره، يبحث في النص التراثي عن المعنى الذي يستجيب لحاجته، يعيش تحت ضغط الحاجة إلى مواكبة العصر، ويرى الجابري أن فصل الذات على التراث عملية ضرورية نحو الموضوعية، واسترجاع الذات فاعليتها الحرة، لتسرع في بناء الموضوع بناء جديداً في أفق جديد، ثم تأتي الخطوة الثانية لتحقيق الموضوعية، وذلك على العمل على فصل الموضوع عن الذات، فصلاً يجعله يسترجع هو الآخر استقلاله (شخصيته) وهو بنيته وتاريخه. ويطبق في هذا المضمار المعالجة البنيوية والتحليل التاريخي والطرح الأيديولوجي:

–ربط أفكار صاحب النص بعضها ببعض؛

–ربط صاحب النص بمجاله التاريخي بكل أبعاده الثقافية والأيديولوجية والسياسية والاجتماعية؛

–الكشف عن الوظيفة الأيديولوجية الاجتماعية والسياسية. لأن الكشف عن الموضوع الأيديولوجي لفكر ما هو الذي يجعله معاصراً لنفسه مرتبطاً بعالمه؛ إن فصل الذات عن الموضوع وفصل الموضوع عن الذات عمليتان متداخلتان في المنهج لطلب الموضوعية .ولكل منهج رؤية تؤطره وتحدد أبعاده، كما أن المنهج يغني الرؤية ويصححها. ويرى «الجابري» أن عناصر الرؤية التي ترتكز عليها القراءة هي التالية:

– 1وحدة الفكر ووحدة الإشكالية.

– 2تاريخية الفكر: الحقل المعرفي والمضمون الأيديولوجي.

إن وحدة الفكر تعني الفكر النظري في مجتمع معيَّن وعصر معيَّن، حيث يشكل وحدة متميزة ذات كيان خاص تذوب فيه، وحدة قابلة للدراسة بوصفها كذلك: إن ما يؤسس ويحدد وحدة فكر ما، في مرحلة تاريخية ما، هو وحدة إشكالية هذا الفكر، والإشكالية (Problématique) بالمعنى الاصطلاحي، منظومة من العلاقات التي تنسجها داخل فكر معين مشاكل عديدة، لا تتوافر إمكانية حلها منفردة، ولا تقبل الحل من الناحية النظرية إلا في إطار حل عام ليشملها جميعاً، وهي النظرية التي تتوافر إمكانية صياغتها. فإشكالية فكر ما لا تتحدد بما أنتجه هذا الفكر، بل يتسع مجالها لجميع أنواع التفكير، كما أن تعدد الآراء والأسئلة لا يعني بالضرورة تعدد الإشكاليات. فالإشكالية تتحدد بما تتضمنه وتحمله، ولا تتقيد بإطار الزمان والمكان، بل تبقى مفتوحة أمام أي مفكر لاحق ليتابع التفكير فيها.

وبخصوص المنطلق الثاني للرؤية التي تصدر عنها القراءة، والمتعلق بتاريخية الفكر وارتباطه بالواقع الاجتماعي والسياسي الذي أنتجه أو تحرك فيه (علاقة الفكر بالواقع وبالتالي بالتاريخ) يتمتع الفكر باستقلال نسبي، مما يفرض اللجوء إلى مكونات الفكر نفسه للتحديد مجاله التاريخي (أي امتداد الإشكالية في تاريخ فكر معيَّن) ويتحدد بالحقل المعرفي الذي يتكون من نوع واحد منسجم، من المادة المعرفية أي جهاز التفكير (مفاهيم، تصورات، منطلقات، منهج، رؤية.(...

أما المضمون الأيديولوجي الذي يحمله الفكر، أي الوظيفة الأيديولوجية السياسية والاجتماعية والتي يعطيها صاحب الفكر لتلك المادة المعرفية، وبما أن المعرفة لا تساوق بالضرورة في نموها مع تطور المجتمع، فإن المحتوى المعرفي والمضمون الأيديولوجي اللذين يحملهما فكر واحد ليس من الضروري أن يكونا متساوقين، أي على درجة واحدة من التطور...، وبالتالي فالانتماء إلى نفس الإشكالية وإلى

نفس الحقل المعرفي، لا يعني بالضرورة الانخراط في نفس الأيديولوجية، ولا توظيف المادة المعرفية التي يقدمها ذلك الحقل المعرفي في أغراض أيديولوجية واحدة، بل إن ما يحصل في الغالب أن المنظومة المعرفية الواحدة تحمل مضامين أيديولوجية مختلفة.إن العلاقة بالواقع الاجتماعي والتاريخي، علاقة متعرجة تمر عبر أشكال من الوعي الديني والوعي السياسي، وتعكس مطامح عابرة للزمان والمكان متخلفة أو متقدمة عن عصرها، تقدم نفسها على أنها نتاج للمعرفة والعلم.

وما يرومه «الجابري» من الأطروحات النظرية والمنهجية في دراسته للتراث دراسة علمية ليس بغرض الدراسة الأكاديمية فحسب أو من أجل فهم موضوع من الموضوعات، بل من أجل تطوير العقل وتجديد الفكر ومن ثم الدخول في حوار نقدي مع التراث لنجعله معاصراً لنفسه أي أن نفهمه في ضوء محيطه التاريخي ومجاله المعرفي وحقله الأيديولوجي، وفي نفس الوقت أن نجعله معاصراً لنا من زاوية الفهم والمعقولية.

من هذا المنطلق كانت الحاجة إلى رؤية فكرية، مؤسسة على النقد المنهجي للفكر وأدواته، لتمكيننا من تناول التراث بنظرة فاحصة جديدة، بقصد احتوائه وامتلاكه بقدر الحاجة، وإعادة ترتيبه في سياقه التاريخي، وعقلنته حتى نستطيع أن نؤسس الحاضر والمستقبل، بصورة معقولة، وفاعلة في الحضارة الإنسانية.

ما هو البديل الذي يقدمه الجابري؟

البديل: قراءة جديدة للفلسفة العربية

يبدأ المشروع الفكريّ للجابري بقراءة من منظور جديد للفلسفة العربية الإسلامية، التي ضمنها كتابه نحن والتراث واشتغل فيها على رؤية جديدة تبرز وجود مدرستين في مجال الفلسفة العربية الإسلامية، كان لهما تأثير بالغ في توجهات الفكر والدين والسياسة والاجتماع.

- المدرسة المشرقية ذات النزعة الإشراقية العرفانية.
- المدرسة الفلسفية في المغرب والأندلس ذات النزعة البرهانية العقلانية.

وكان لكل واحد منهما منهج ومفاهيم وإشكاليات خاصة، وينظر الجابري إلى هذا الاختلاف أو التباين بين المدرستين في المنهج والرؤية، باعتباره قطيعة معرفية تميز بين العقلانية (ابن رشد) واللاعقلانية (ابن سينا.)

انحاز الجابري في رؤيته الفصل بين المدرستين، إلى موقف ابن رشد من المتكلمين ونقده لابن سينا والغزالي في كتابه تهافت التهافت؛ وإلى طريقة ابن رشد في الاستدلال، وبنى الجابري تصوره في القطيعة المعرفية، على رأي ابن رشد في فكر المتكلمين، والفلاسفة الذين سبقوه بأنه فكر غير برهاني، يستند على منهج الاستدلال «بالشاهد على الغائب»، باصطلاح المتكلمين أو القياس باصطلاح النحاة والأصوليين.

ويرى الجابري أن آلية هذا القياس تكاد تنحصر في البحث عن قيمة ثالثة، تكون جسراً بين الشاهد والغائب، أو بين المقيس والمقيس عليه، أو بين حكم المعلوم وحكم المجهول، حتى يتسنى للباحث تمديد

حكم الشاهد على الغائب (عن طريق العلة، أو الدليل). هذا النوع من الاستدلال يهدف إلى البحث عن النتيجة كما هو شأن القياس الأرسطي، لأن النتيجة معطاة في الحكم الشرعي.

وبالتالي فآلية هذا الاستدلال واحدة، بالنسبة للنحو، والفقه والكلام. ويرى ابن رشد أن هذا الاستدلال ضعيف، لأنه يجمع بين عالم الطبيعة وعالم ما بعد الطبيعة، عالم الغيب وعالم الشهادة، وهما عالمان مختلفان تماماً، فلا يصح هذا الاستدلال إلا حيث تكون النقلة معقولة، وذلك عند استواء طبيعة الشاهد والغائب. ومن ثم فإن رفض المنهج، يؤدي إلى رفض المفاهيم المؤسسة عليه، كما أن رفض المنهج والمفاهيم معاً معناه رفض البنية الفكرية المؤسسة لهما.

أفاض الجابري في شرحه لتأكيد رؤيته في الفصل المعرفي أو القطيعة الإبستيمولوجية، بين ما هو من مجال الحس والعقل، وما هو من مجال الدين والوحي، فقد تعددت زوايا النظر حول الموضوع من طرف الباحثين، القدماء أو المعاصرين.

ما يلفت النظر أن الجابري استلهم نظريته النقدية للتراث انطلاقاً من المرجعية الرشدية، ذات الطابع الرياضي العقلاني في التفكير، ليصوغ على منوالها رؤيته الفكرية ومقاربته النقدية، وذلك بضرورة استيعاب التراث ونقده وتجاوزه؛ فدرس مكونات البنية النظرية للعقل العربي، في كتابه تكوين العقل العربي، حيث حدد ثلاثة نظم معرفية يؤسس كل منها آلية خاصة، في إنتاج المعرفة، مع ما يرتبط بها من مفاهيم، وينتج عنها من رؤى خاصة كذلك... أما في كتابه بنية العقل العربي فقد تناول فيه بالدراسة والتحليل والنقد النظم المعرفية في الثقافة العربية: البيان والعرفان والبرهان.

أراد الجابري أن تكون الأحكام التي قدَّمها تحمل معها مستندات متنوعة تنطق باسم كيان العقل العربي، كما تكون داخل الثقافة العربية الإسلامية، بمختلف منازعها، عسى أن تؤدي إلى «بدء النظر» في بنية العقل الذي طال سكوته عن نفسه، لكي يستيقظ العقل العربي من سباته، ضمن ما يمكن أن يعتبر قراءة للتراث، من أجل استرجاع فاعليته التي جمدت خلال عصر الانحطاط؛ فالجابري يرى ضرورة قيام ثورة ثقافية تدعو إلى قراءة جديدة للنصوص الدينية؛ قراءة «تقطع» مع المذاهب التي ابتعدت عن الأصول الأولى وتفتح المجال لقيام حركة عقلانية نقدية جديدة. مع الأخذ في الاعتبار العلاقة العضوية بين الأيديولوجي والإبستيمولوجي في الثقافة العربية وانعكاساتها وتجلياتها، في صورة الجدل بين الثقافة والسياسة، ومدى أهمية المحيط الاجتماعي والثقافي، في تشكيل الفكر كأداة ومحتوى، أي الفكر كأداة لإنتاج الأفكار، باعتبارها جملة الآراء التي يعبّر بها المجتمع عن همومه ومشاغله ومثله الأخلاقية، ومعتقداته المذهبية، وطموحاته الاجتماعية والسياسية، وهو نفس المعنى الذي تحمله الأيديولوجيا انطلاقاً من أن الفكر وحدة لا تتجزأ، وأنه ليست هناك قوة مدركة معزولة عن مدركاتها. فالتداخل بين الفكر ومحتواه، أي بوصفه أداة للتفكير، أو بوصفه الإنتاج الفكري ذاته، هو دوماً نتيجة احتكاكه مع المحيط الاجتماعي والثقافي. والإنسان ابن بيئته وثقافته وحضارته، ومن خلال منظومة مرجعيته الفكرية، تتشكل رؤيته وموقفه من العالم والكون؛ ومن هذا المطلق يحدد مفهوم «العقل العربي» بوصفه أداة للإنتاج النظري، الذي صنعته الثقافة العربية، بحيث تحمل معها تاريخ العرب الحضاري وتعكس واقعهم وعوائق تقدمهم، وأسباب تخلفهم الراهن. ويريد الجابري من هذا التحديد أن ينتقل من مجال التحليل الأيديولوجي، إلى مجال البحث الإبستيمولوجي الذي يتخذ موضوعاً له أدوات الإنتاج الفكري، لا منتجات هذه الأفكار، فوجهته التحليل «العلمي» لـ «عقل» تشكل من خلال إنتاجه للثقافة العربية الإسلامية.

ويميز الجابري بين مفهومين للعقل: الأول العقل المكون أو الفاعل، ويقصد به النشاط الذهني الذي يقوم به الفكر، حين يصوغ المفاهيم ويقرر المبادئ، إنه الملكة التي يدرك بها الإنسان العلاقات والمبادئ الكلية، والثاني مفهوم العقل المكون أو السائد، وهو مجموع المبادئ والقواعد التي نعتمدها في استدلالاتنا.

فالعقل العربي إذاً هو العقل المكون (La Raison constituée) حسب تحديد لالاند، أي جملة المبادئ والقواعد التي تقدمها الثقافة العربية للمنتمين إليها كأساس لاكتساب المعرفة، أو تفرضها عليهم كنظام معرفي وهذا يعني أن النشاط العقلي إنما يتم انطلاقاً من مبادئ وحسب قواعد مع وجود تأثير وتأثر بين العقل الفاعل والعقل السائد.

الغرض من تحديده مفهوم للعقل من زوايا نظر متباينة إبستيمولوجية وفلسفية، أن يكون مدخلاً «لنقد العقل العربي» وذلك من زاويتين:

– 1النظر إلى العقل العربي بوصفه عقلاً سائداً، قوامه جملة مبادئ وقواعد تؤسس المعرفة في الثقافة العربية، وفي هذه الحالة يكون من الممكن القيام بتحليل موضوعي علمي لهذه المبادئ والقواعد التي تشكل النظام المعرفي في الثقافة العربية.

– 2النظر إلى العقل العربي بوصفه عقلاً فاعلاً، ينشئ ويصوغ العقل السائد في فترة تاريخية ما، الشيء الذي يعني إمكان صياغة مبادئ وقواعد جديدة، تحل محل القديمة وبالتالي قيام عقل سائد جديد، أو على الأقل تطويره وتحديثه، وهذا لن يتم إلا من خلال نقد العقل السائد القديم، وأن تمارس عملية النقد داخل هذا العقل نفسه.[31]

فكل ما هو واقعي هو عقلي، وكل شيء موجود يقبل التفسير العقلي، لأن وجود الشيء معناه صدوره عن سبب فاعل وسبب غائي ومن ثم فإن تعقل الشيء يعني إدراك سببه الفاعل وسببه الغائي، هذا من حيث المنطق طبقاً للمنظور «الهيغلي»؛ فقد جعل هيغل للتاريخ معنى، وللعقل حركة، فأصبح التطابق بين العقل ونظام الطبيعة مسألة صيرورة ومصير، مسألة واقع، يتحقق عبر التاريخ.

مفهوم العقل في المجال التداولي العربي

يرى الجابري أن العقل في المجال التداولي العربي، يرتبط بالذات وحالاتها الوجدانية وأحكامها القيمية، فهو في نفس الوقت عقل وقلب وفكر ووجدان وتأمل، أما في التصور الذي تنقله اللغات الأوروبية، فالعقل مرتبط بالموضوع؛ فهو إما نظام الوجود، أو إدراك هذا النظام أو القوة المدركة.

انطلاقاً من المعطيات السابقة، فإن العقل العربي تحكمه النظرة المعيارية، التي تبحث للأشياء عن موقعها في منظومة القيم المرجعية، في مقابل النظرة الموضوعية التي تبحث عن ما هو جوهري في الأشياء. النظرة المعيارية تختصر الشيء في قيمته، أي في المعنى الذي يضيفه عليه المجتمع والثقافة صاحب تلك النظرة. أما النظرة الموضوعية فهي نظرة تحليلية تركيبية، تحلل الشيء إلى عناصره الأساسية، لتعيد بناءه بشكل يبرز ما هو جوهري فيه.

بعد هذه الملاحظات يتطرق الجابري إلى النظام المعرفي المؤسس للمعرفة ويفسر النظام المعرفي بأنه جملة من المفاهيم والمبادئ والإجراءات تعطي للمعرفة في فترة تاريخية ما، بنيتها اللاشعورية.

والمقصود بالبنية هنا وجود ثوابت ومتغيرات في الثقافة العربية، الأمر الذي يدفع إلى طرح السؤال عن ماذا تغير في الثقافة العربية؟ وماذا بقي ثابتاً منذ العصر الجاهلي؟

يرى الجابري أن هناك أشياء كثيرة لم تتغير في الثقافة العربية، منذ «الجاهلية»، تشكل في مجموعها ثوابت هذه الثقافة، وتؤسس بنية العقل العربي الثقافية التي تتشكل لاشعورياً داخل الثقافة، وتعمل بكيفية لاشعورية؛ فمفهوم اللاشعور المعرفي هو جملة من المفاهيم والتصورات والأنشطة الذهنية، التي تحدد نظرة الفرد المنتمي إلى الثقافة العربية، إلى الكون والمجتمع والتاريخ. فبنية العقل العربي تشكل هذه المفاهيم، والأنشطة الفكرية التي تزود بها الثقافة العربية المنتمي إليها، والتي تشكل لديهم اللاشعور المعرفي الذي يوجه بكيفية لا شعورية آراءهم الفكرية والأخلاقية، ونظرتهم إلى أنفسهم وإلى غيرهم.

إن اللاشعور مفهوم إجرائي، يساعد على إرجاع عملية المعرفة إلى جهاز من المفاهيم والآليات غير المشعور بها، ولكن قابلة للرصد والتحليل؛ كما يسمح بربط الزمن الثقافي بزمن اللاشعور (زمن اليقظة والوعي)، وأيضاً زمن بنية العقل المنتمي لثقافة ما. فالزمن الثقافي زمن متداخل، متموج يمتد على شكل لولبي، بما يجعل مراحل ثقافية مختلفة تتعايش في نفس الفكر، وبالتالي في نفس البنية العقلية.

تظل هذه المفاهيم حاضرة في فكر المجتمع والأفراد المنتمي إلى تلك الثقافة. فيعيش القديم والجديد داخل الوعي في حالة تصارع وتنافر وتناقض، أو في حالة تعايش توفيقي، الأمر الذي تنعكس آثاره على سلوك الأشخاص المعرفي والفكري، ولكنهم في جميع الأحوال يعيشون زمناً ثقافياً واحداً، ما لم تتحقق قطيعة مع النظام المعرفي السالف (أي بين القديم والجديد)، أي أن حصيلة التطور لم تبلغ الدرجة التي لا يعود من الممكن معها الانتقال من الجديد إلى القديم.

إن المهم أن تمد المفاهيم الثقافية أصحابها بوعي تاريخي، يجعلهم ينظرون إلى الماضي، فيقرؤون فيه المستقبل من خلال ما هو حي، مما صنعته الثقافة العربية في العصور السابقة، من عناصر طبعت العقل العربي بطابعها، وظلت تمارس إلى اليوم تأثيرها داخل هذه الثقافة في جميع الفرق، توجه عملهم وتؤسس رؤاهم واستشرافاتهم. ولعل هذا ما دفع الجابري إلى التركيز على الصراع الإبستيمولوجي أو صراع النظم المعرفية في الثقافة العربية، وفي علاقاتها بمكونات العقل العربي المعرفية والأيديولوجية في مشروعه النقدي.

نقد العقل العربي الدواعي:

إن القراءة الدقيقة لمختلف الإشكالات والقضايا التي تناولها الجابري بالتحليل والتشريح في مؤلفاته، تتعلق بدراسة ونقد العقل العربي في بنيته وتكوينه، وفي تجلياته السياسية والأخلاقية باعتباره المصدر والوعاء، والأداة التي انبثقت منها جملة المفاهيم الثقافية التي تشكل المنظومة الفكرية والحضارية للتراث العربي والإسلامي، وهو يركز على مساءلة «العقل العربي» ونقده باعتباره الجزء الأساسي من كل مشروع للنهضة، ومن أهم عوامل تعثرها المستمر إلى الآن، بحيث لا يمكن بناء نهضة بعقل غير ناهض، وعقل لم يقم بمراجعة شاملة لآلياته ومفاهيمه وتصوراته.

ولتشخيص الاختلال ومَكمن العطل والكوابح المعوقة للمشروع النهضوي، اتجه الجابري إلى دراسة العقل العربي باعتباره الملكة والأداة المركزية، التي بواسطتها يمكن أن تتحقق النهضة الفكرية والتقدم

الاقتصادي، والتحرر السياسي. لذا من العبث أن يرجو العرب نهوضاً قبل أن يفكوا عن عقولهم الأغلال والأصفاد، التي تكبلها وتمنعها من الانطلاق والسعي إلى الابتكار والتجديد والاجتهاد.

فالعقل وعاء الفكر والثقافة، والمهارة. وبرمزية الأفكار، ارتقى الإنسان وتطور؛ فما تتضمنه «بنية العقل» من منظومة معارف، تقرأ وتكتب وتبلغ أقصى درجاتها، حين تبلغ أبلغ صورها وأقصاها بياناً وقدرة، على تشكيل الرؤى والتصورات في الدين والاجتماع والسياسة، ومن نافل القول أن غاية التمدن الإنساني تحقيق ما في البشر من قوة كامنة على تنمية الفكر.

لقد أدرك رواد النهضة العربية الحديثة، على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم الفكرية والسياسية، أهمية الدور الذي على الفكر أن يقوم به في رسم طريق النهضة وقيادتها والعمل على تحقيقها، وكانوا يدركون أن بناء مشروع نهضوي لا يمكن أن يتحقق إلا إذا كان يؤسسه ويغذيه عقل ناهض يربط بين ملكة الفكر وإرادة العمل.

إلا أن قادة الفكر النهضوي – حسب الجابري – أغفلوا نقد العقل العربي، فراحوا يصورون النهضة ويخططون لها بعقول أعدت للماضي، وبمفاهيم أنتجها «حاضر» غير حاضرهم ومفاهيم لم تعرَّب، ولم يُبذل المجهود الكافي من أجل تبيئتها وتحيينها، وجعلها من خلال تحليل الواقع مطابقة، أي معبرة عن هذا الواقع، وقادرة على إمداد العمل العربي بالجهاز النظري الضروري لتحقيق التغيير وبناء النهضة.وهكذا كانت إشكالية النهضة المحرك الرئيس لإنجاز مشروع نقد العقل العربي من منظور «إبستيمولوجيا الثقافة»، أو التحليل الإبستيمولوجي للثقافة العربية، من دون استبعاد المنهج التاريخي والأيديولوجي في مقاربته النقدية، الهادفة إلى الكشف عن المفاهيم المعرفية التي يستند إليها العقل العربي في التراث العربي الإسلامي وفي الخطاب العربي المعاصر.

فالثقافة العربية هي مجموع وسائل التعبير عن التجربة العربية، أي البنية المشتركة لكل منظومة تعبيرية (اللغة، السلوك، الخيال..) فمنطق الثقافة هو الذي يبرز عملية التطور والتحول الجارية داخل البنية العقلية للمجتمع، وعندما نحلل الثقافة العربية وندرس التراث كما يستوعبه العرب في الوقت الراهن، من خلال همومهم الآنية، سوف نكشف عن مميزات الحقبة التاريخية، من حقبة التحول من التبعية إلى الانعتاق، وكذلك عن مميزات النخبة التي تقود عملية الانتقال وعن موقع العرب في العالم. هذه النظرة إلى الثقافة والتراث، تستعمل المنظور التاريخي كعنصر معرفي أساسي لتكوين الموضوعية العلمية.

النقد و تحليل الخطاب باعتباره نظام أفكار القراءة الاستنساخية والقراءة التأويلية الواعية

إن التراث وفق التحليل العلمي هو مجموعة من النصوص، والنص رسالة من الكاتب إلى القارئ، فهو خطاب، والقارئ يتلقى الفكرة أو الوجهة من النظر من النص، ويقوم بقراءة وتأويل الخطاب، الذي هو عبارة عن بناء من الأفكار يحمل وجهة نظر مصوغة في بناء استدلالي، أي القدرة على تقديم وجهة نظر صاحبه إلى القارئ، بالصورة التي تجعلها تؤدي لدى هذا الأخير مهمة الإخبار والإقناع.

ثم إن الخطاب باعتباره مقروء القارئ، قد أصبح موضوعاً لإعادة بناء أي نص للقراءة، بمعنى أنه يمارس في ذلك النص ما يمارسه صاحب الخطاب عند بناء خطابه، وهكذا يسهم القارئ في إنتاج وجهة نظر معينة من الخطاب. من هنا اختلاف القراءات وتعدد مستوياتها، ويبرز الجابري منها صنفين: القراءة الأولى تقف عند التلقي المباشر بأكبر قدر من الأمانة، أو بأقل تدخل ممكن، وهي تحاول أن

تخضع نفسها للنص لتقدم لنا صورة طبق الأصل عن المقروء. إنها القراءة الاستنساخية» لكونها تتبنى وجهة نظر صاحب النص.

أما القراءة الثانية فهي تأويل للنص، تسهم بوعي في إنتاج وجهة النظر التي يحملها الخطاب، ولا تقف عند حدود العرض والتلخيص والتحليل، بل تريد إعادة بناء ذلك الخطاب بشكل يجعله أكثر تماسكاً وأقوى تعبيراً، عن إحدى وجهات النظر التي يحملها صراحة أو ضمناً، وتكون هذه القراءة ناجحة إذا استطاعت أن توظف البعدين في إنتاج بناء واحد منسجم ومتماسك.

بناءً على ما تقدم فإن الجابري يقترح قراءة تشخيصية للخطاب العربي المعاصر، بمعنى أنها تشخص عيوب الخطاب، والهدف هو حمله إلى تفكيك نفسه ودفعه إلى الكشف عن تفاهته وتقديم تناقضاته ونقائصه عارية. وبالتالي ليس الهدف الحديث عن مضمون الخطاب الأيديولوجي ولا محتواه المعرفي، بل ينصب على ما هو مهم في الخطاب، من كونه يحمل علامات العقل الذي ينتجه ومن ثم تشخيص هذه العلامات كعلامات «اللاعقل» في الخطاب العربي المعاصر.

وقد عمد الجابري إلى المزاوجة بين المعالجة البنيوية والتحليل التاريخي، من أجل الكشف عن لاتاريخية الخطاب وذلك عن انقطاع منطوقه ومضمونه. لذلك تم التركيز على بنية العقل المنطقية وأسسه الإبستيمولوجية، فنظر إلى الفكر العربي من خلال القضايا التي يعالجها، وليس من خلال تياراته الأيديولوجية، وإلى القضايا بوصفها مجموعة مشاكل فكرية تكون إشكالية أو بنية فكرية واحدة بأسلوب تفكيكي بقصد إظهار ضعف الخطاب وحمله على كشف تناقضه وتهافته.

يوظف الجابري، في مقاربته للخطاب العربي، مفاهيم تنتمي إلى فلسفات أو منهجيات أو «قراءات» مختلفة متباينة، من كانط، أو فرويد أو بشلار أو التوسير أو فوكو، إلا أنه لا يتقيد في توظيف تلك المفاهيم بنفس القيود التي تؤطرها في إطارها المرجعي الأصلي، بل يتعامل معها بحرية واسعة انطلاقاً من كون هذه المفاهيم لا تعتبر قوالب نهائية بل مجرد أدوات للعمل بحسب استعمالها في كل موضوع بالكيفية التي تجعلها منتجة وإلا وجب التخلي عنها. فإذا كان لا بد من إعطاء معنى للمفاهيم التي يتم توظيفها فيجب استخلاصه من السياق أي الفضاء الفكري الذي نستعملها فيه، أما المعنى الذي يعطيه لها إطارها المرجعي الأصلي، فيجب أن يؤخذ كدليل فقط وليس كمدلول.

ما يمكن استخلاصه من نقد الجابري للخطاب العربي المعاصر، أن الوعي العربي في تصوره يعاني ثغرات وأوهاماً بسبب التضخم في الطموح، والقفز على الواقع وإلغاء الزمان والمكان. ويلاحظ أن الآلية المتحكمة بأنماط التفكير هي آلية «قياس الغائب على الشاهد»، وينطبق ذلك على جميع التيارات الفكرية السلفية والليبرالية واليسارية والقومية، ويرى أن الخطاب المبشر بالثورة والأصالة والمعاصرة خطاب توفيقي متناقض محكوم بـ «سلف»، بمعنى أنه خطاب غير «مبني» لا يمنح أصحابه «مأوى» أو ما هم في حاجة إليه من الطمأنينة والاستقرار، ولا يجعل تطلعاتهم منسجمة تقدم نفسها كممكن واقعي، وكونه خطاباً محكوماً بسلف معناه أنه لا يرى الواقع كما هو، وبالتالي لا يرى المستقبل إلا من خلال التمثال الذي يقيمه في ذهنه «السلف .«وبالتالي يعتبر خطاباً فاقد الوعي بحركة التاريخ.في جميع هذه الأنماط هناك نموذج سلف يمارس سلطة مطلقة على الفكر العربي فيحتويه ويوجهه.

فالسلفي يفهم تحرير العقل على أنه إحياء للعقل القديم، «العقل الذي يعقل صاحبه». يمارس النموذج الأوروبي سلطته على الليبرالي العربي أو الوضعي أو الماركسوي ويتبناه التاريخاني، وكل هؤلاء

يفهمون النهضة تمثلاً بالنموذج الأوروبي ويفهمون تجديد العقل العربي على أنه اقتباس من قادة الفكر الأوروبي وتلفيق أو مزيج منها.

يستخلص الجابري مما تقدم أننا لا نستطيع أن نجدد فكرنا ما دمنا محكومين بسلطة النموذج السلف، وإذا كان الإنسان بطبيعته يفكر من خلال نموذج فيجب أن نفرق بين نموذج يؤخذ للاستئناس وبين نموذج يؤخذ كأصل للقياس عليه، لأن النموذج في هذه الحالة يصبح سلطة مرجعية ضاغطة قاهرة تحتوي الذات احتواءً وتفقدها شخصيتها واستقلالها وقدرتها على الابتكار والاجتهاد.

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا السياق لماذا لم تتطور أدوات المعرفة (مفاهيم، مناهج، رؤية..) في الثقافة العربية الإسلامية إلى ما يجعلها قادرة على إنجاز نهضة فكرية وعلمية مطردة التقدم، على غرار ما حدث في التجربة الأوروبية؟ إن تقدم الفكر مرهون بتقدم العلم، وبناء عليه، فإن السؤال الذي يطرح نفسه بصدد التجربة الثقافية العربية الإسلامية يتجه بأصابع الاتهام إلى العلم العربي، وأين موقع العلم من حركة الثقافة العربية وبالتالي من تطور العقل المنتمي إلى هذه الثقافة؟

<u>الممارسة النقدية للجابري</u>

نقد تكوين العقل العربي :

<u>النقد وعلاقته بالقراءة التأريخية التحليلية لتكوين العقل العربي:</u>

ففي الجزء الأول من مشروعه النقدي قدم لنا قراءة تاريخية تحليلة للمحطات التاريخية والفكرية التي تم من خلالها تشكل معالم ومكونات العقل العربي بكل تجلياته مبرزا أهمية كل مرحلة و دورها في تكوين توجهات معرفية وعلمية جديدة اقتضاها المتغير الحضاري والجغرافي والاجتماعي والعلمي(الفقه وعلم أصول الفقه والبيان النحو والبلاغة) ودور كل فرع او علم في تكوين العقل العربي وتقعيده ثم عن الأسبقية الزمنية هذه العلوم والعلاقة التفاعلية بينها. هذا العمل الذي من شأنه أن يساهم في إبراز المكونات الثقافية للعقل العربي ومختلف المراحل التي مرّ بها هذا البناء وصولا الى علم الكلام ثم التصوف (العرفان) ثم البرهان والفلسفة وعلاقة ذلك بالوافد الأجنبي بمختلف مشاربه (الفارسي الهرمسي العرفاني واليوناني البرهاني) ثم تأثير كل ذلك في تكوين عقل ناهض منخرط في بناء الفكر والعلم في مختلف المجالات دون استثناء علوم الشرع التي كان لها الدور الفاعل في بناء العقل العربي، كونها لم تكن مجرد علوم شرعية فقط بل كانت علوما ناظمة للعقل.

عصر التدوين كبداية لتشكل العقل العربي عند الجابري

يعتقد" محمد عابد الجابري"«أن العقل العربي قد تكون ووضعت أسسه الأولى النهائية والمستمرة خلال عصر التدوين »هذا العصر الذي جمعت فيه الأحاديث وتفاسير التدوين القرآن الكريم، وبداية كتابة التاريخ الإسلامي، وأسس علم النحو وقواعد الفقه، وتشكلت فيه الفرق والمذاهب الإسلامية، وهو نقطة البداية لتكوين النظام المعرفي في الثقافة العربية الإسلامية وفي هذا العصر اكتمل تكون العقل العربي ولم يتغير منذ ذلك الوقت وما زال سائدا في ثقافتنا حتى اليوم، وهو الإطار المرجعي للعقل العربي .
وعلى هذا فإن بنية الثقافة العربية ذات زمان واحد(زمن راكد)، يعيشه الإنسان العربي اليوم مثلما عاشه أجداده في القرون الماضية، وبالتالي فإن العقل العربي، إنما تشكل ككيان و تثبتت أركانه وتعينت حدوده و اتجاهاته خلال عصر التدوين.

وفي فصل تحت عنوا ن " الأعرابي صانع العالم العربي"، يوضح الجابري أن المرجعية الأكاديمية للغويين في تأسيسهم لعلوم اللغة والنحو والبلاغة هو الأعرابي . يقول الجابري "لقد جمعت اللغة العربية من البدو العرب الذين كانوا يعيشون منا زمن ممتدا التكرار والرتابة، ومكانا بل وفضاء فارغا وهادئ كل شيء فيه صورة حسية بصرية أو سمعية فهذا العلم هو كل ما تنقله اللغة العربية لأصحابها اليوم وقبل اليوم وسيظل هو ما دامت اللغة خاضعة لمقاييس عصر التدوين. [9]فالمنهجية التي اتبعها اللغويون والنحاة الأوائل حسب الجابري وكذلك المفاهيم التي- - استعملوها والآليات الذهنية التي اعتمدوها عند جمع اللغة العربية وتقعيدها تقوم على الاستماع إلى الأعراب، حيث اتجه جامعوا اللغة إلى البادية حيث الأعراب الأقحاح، وأصبح هؤلاء الحفاة العراة مطلوبين بإلحاح.

والنتيجة حسب" الجابري " هي تحكم القديم وهيمنة عالم الأعرابي على الفكر العربي عموما وهذا ما ليس بالطبيعي ، إذ يقول بهذا الصدد " أن يظل الذهن العربي مشدودا إلى اليوم،إلى ذلك العالم الحسي اللاتاريخي الذي يشده عصر التدوين اعتمادا على أدنى درجات الحضارة التاريخية عبر التاريخ، حضارة البدو الرحل اتخذت كأصل، ففرضت على العقل العربي طريقة معينة في الحكم على الأشياء قوامها :الحكم على الجديد مما يراه القديم.[10]

وبهذا يكون" الجابري "قد رصد النقاط المهمة والضرورية في الآلية التي احتكت بها عملية جمع اللغة العربية أو صناعتها في عصر التدوين على أيدي " الخليل ابن أحمد الفراهيدي" من خلال كتابه(العين) الذي أسس لعلم العروض بمنهجية جمعت شتات اللغة العربية لأهلها عبر التاريخ حتى اليوم فمنهجية "الخليل "انطلقت من أسس رياضية تعتمد أصل الكلمات المجردة المكونة من ثمانية وعشرين حرفا والتي تتكون منها الكلمات، ولم يكن متداولا بين العرب أو الأعرابي الذي لم تخالطه شوائب المدينة. الجابري محمدعابد.

وبالتالي" فالجابري "في نقده للعقل العربي يرى أنه عقل يأبى أن يخرج بإطاره المرجعي للغة العربية عن تلك التي جمعها وصنفها" الفراهيدي " وتابعيه من ذات الفترة، أما التطورات اللاحقة فيتم اعتبارها دخيلة على لغة الأعراب، وهذا ما قاد طبيعيا إلى جمود اللغة العربية ونشوء لهجات عامية أصبحت بمرور الوقت أكثر استعمالا من اللغة العربية الفصيحة، مما شكل معضلة رئيسية في الفكر العربي ووعي المثقف والانسان العربي، وعقليته وفكره.

موقفه النقدي من النظم المعرفية المؤسسة للعقل العربي:

النظام البياني(المعقول الديني العربي) أو كما يطلق عليه" الجابري("المعقول الديني العربي)، ويقصد به تلك الممارسة العلمية التي تتأسس على علوم اللغة وما يتفرع عنه من آليات أهمها القياس الذي نجده عند الأصوليين والنحويين والمتكلمين، فيكون البيان هو" :الحقل المعرفي الذي بلورته علوم اللغة العربية الاستدلالية الخالصة، ونعني بها النحو والفقه والكلام والبلاغة)[11] ."

كما ينفي" الجابري "أن يكون البيان مرتبطا بعلماء البلاغة وحدهم، كفرع من فروع هذا العلم فهو يضم –حسب قوله جميع علماء البيان من لغويين و نحاة و بلاغيين وعلماء أصول الفقه وعلماء الكلام سواء كانوا معتزلة أو أشاعرة أو حنابلة أو من الظاهرية أو من السلفيين قدماء ومحدثين، إن هؤلاء جميعا ينتمون إلى حقل معرفي واحد مؤسسه نظام))

---

9 الجابري محمد عابد، 2009 ، ص84 .

10 (الجابري محمد عابد ، 2009 « .) ، ص 87

11 عدي محمد 201 :، ص7

ومن جهة أخرى يذهب إلى تحديد الأزواج ، «معرفي واحد هو النظام المعرفي البيان الإبستيمولوجية للنظم المعرفية، وهذه الأزواج هي :اللفظ / المعنى الأصل / الفرع، الخير/ القياس، و هي المفاهيم الأساسية الأولية للنظام البياني. الجابري[12]

ويخلص" الجابري"من دراسته لدائرة البيان إلى اعتباره اللغة العربية محددا أساسيا للعقل العربي، إلا أنها في نظره لغة لا تاريخية وغير متجددة بقيت جامدة ومحدودة على حالها منذ عصر التدوين، ويكون الأعرابي بهذا هو صانع العقل العربي على حد تعبيره وما حافظ على هذا الجمود هو آلية القياس التي تجعل اللاحق تابع السابق، هذه الآلية التي انتقلت بعدها إلى مختلف الميادين البيانية من بلاغة وكلا م وأصول فقه.

النظام العرفاني(اللامعقول العقلي)

يعرف" العرفان"بشكل العام بأنه**:**الكشف والالهام والنور الذي يقذف بالقلب، فهو معرفة ذوقية وهو يقع عند الصوفية في مقابل البيان عند أرباب اللغة والبلاغيين، وفي مقابل البرهان عند الحكماء يأخذ طابع المنهج عند الصوفية وهو أدنى درجات المعرفة.

أما النظام" العرفاني "حسب" الجابري "أو كما يسميه هو(باللامعقول العقلي)فيعتبره علما دخيل تسرب إلى الثقافة العربية الإسلامية مع الفتوحات من الموروث القديم ويمثل جملة الأفكار، وثقافة العقائد التي سبقت الإسلام و يتجلى في الغنوصية والهرمسية ، والتي تبلورت وتجلت مع عصر التدوين في شكل موروث فلسفي علمي.

و هو يشمل ذلك حسب قوله من تصوف وفكر شيعي وفلسفة إسماعيلية ونفسير باطني للقرآن الكريم وفلسفة اشراقية الباطنية وكيمياء وتطبب وفلاحة نجومية وسحر وطلسمات وعلم التنجيم...الخ، ويؤسسها نظام معرفي يقوم: على" الكشف والوصال"و"التجاذب والتدافع "كمنهاج، وعلى ما يسمى باللامعقول العقلي الذي يطلق عليه" الجابري "صفة العقل المستقيل، كونه اللامعقول الذي يمثل إيديولوجية الآخر الذي تسرّب إلى الثقافة العربية. الجابري محمد عابد، 2009 ، ص251

النظام البرهاني(المعقول العقلي)

يذهب" الجابري "إلى تعريف البرهان بالمعنى الضيق للكلمة على أنه «العمليات الذهنية التي تقرر صدق قضية ما بواسطة الاستنتاج، أي ربطه اربطا ضروريا بقضايا أخرى بديهية » [13]أما في المعنى الاصطلاحي فالبرهان هو كل عملية ذهنية تقرر صدق قضية ما.

فالنظام" البرهاني "كما عبر عنه" الجابري " يأتي على رأس التقسيم الثلاثي للنظم المعرفية المؤسسة للعقل العربي بمثابة تجلي للعقل العلمي الذي تم نقله إلى الثقافة العربية وتوظيفه، و الذي يرجع أساسا إلى الفلسفة" الأرسطية " التي أسسها الفيلسوف اليوناني " أرسطو[14] "

وهو يرجح المنهج البرهاني كونه يعتبره" الجابري "المنهج العلمي والبرهاني الذي يعتمد–حسب قوله قوى الإنسان المعرفية الطبيعية من حس وتجربة ومحاكمة عقلية وحدها دون غيرها، في اكتساب معرفة بالكون ككل وكأجزاء، لا بل لتشييد رؤية للعالم يكون فيها من التماسك والانسجام ما يلبي طموح العقل إلى إضفاء الوحدة والنظام على شتات الظواهر ويرضي نزوعه الملح إلى طلب اليقين" [15]

---

12 محمد عابد 2009 :، ص 13 .

13 عابد الجابري2009ص383.

14 عدي محمد 2016 :ص ،7.

15 الجابري 2009،ص383.

وقد تعرّض في تحليله لتلك النظم إلى":الأزمة التي عرفها العقل العربي في حركته التكرارية المغلقة عن طريق صراع الأسس والأنظمة" ،موضحا أن بداية الصراع دخلت الثقافة العربية الإسلامية منذ بداية عصر التدوين، لينتهي بانتصار النظام المعرفي العرفاني الذي أدى بدوره إلى انتصار خطاب اللاعقل ممثلا حسب الجابري في التصوف الذي- - اكتسح الساحة السنية خاصة، فنقل الخطاب اللاعقل ليس فقط إلى مملكة البيان والبرهان، و مملكة النقل ومملكة العقل، بل أيضا إلى المملكة العامة مملكة التقليد والتسليم)...(ذلك هو عصر الإنحطاط الذي سجل إستقالة العقل العربي البياني و منه والبرهاني.

نقد العقل السياسي العربي:

ويقصد بالعقل السياسي محددات الممارسات السياسية وتجلياتها الحضارية في الحضارة العربية الإسلامية وامتداداتها إلى اليوم، كونه يدرك علاقة وتأثير التفكير السياسي في بنية العقل

محددات العقل السايسي العربي:

القبيلة

الغنيمة

العقيدة

موقفه من الحكم السياسي العربي

نقد الحكم الأموي

نقد الحكم العباسي

موقفه التجديدي للعقل السياسي

تحويل الغنيمة الى اقتصاد وضريبة

تحويل القبيلة الى مجتمع مدني

تحويل العقيدة الى مجرد رأي

نقد العقل الأخلاقي :

- الموروث القيمي الاسلامي متعدد في وحدته- التراث الفارسي، الموروث اليوناني، الموروث الصوفي، الموروث العربي الخالص والموروث الإسلامي)

خلاصة :

أن مقصود" الجابري "بالعقل العربي ليس الثقافة العربية، وليس الفكر العربي وما أنتجه من معرفة، وإنما المقصود به الأداة والطريقة التي أنتجت هذه المعرفة فالجابري ينظر إلى العقل العربي على أنه كيان فكري، ونهج في التفكير له خصوصية عربية يتحدد بموجبها الجنسية الثقافية لكل مفكر.

ويشيد" الجابري "بالعقل العربي من جانب ولكنه ينتقده في تكويناته التي شكلته على النحو الذي يبدو به سائدا، وفي جانب آخر يقارنه بالعقل اليوناني والعقل الأوروبي. ويستبعد " الجابري"فكرة القول ب(العقل الإسلامي)لأن هناك علماء مسلمين غير عرب لهم نتاج ضخم مكتوب بلغتهم أي داخل ثقافتهم وعقلهم هم، وليس من داخل العقل العربي الذي تشكل اللغة العربية إحدى أهم أساسياته.

ويعتقد " ناقد العقل العربي "أن بنية الثقافة العربية ذات زمان واحد(زمن راكد)يعيشه الإنسان العربي اليوم مثلما عاشه أجداده في القرون الماضية، وبالتالي فإن العقل العربي- حسب رأيه إنما تشكل ككيان وتثبتت أركانه وتعينت حدوده واتجاهاته خلال عصر- التدوين، الذي انتهى بانتصار النظام المعرفي العرفاني الذي أدى بدوره إلى انتصار خطاب اللاّعقل ممثلا في التصوف الذي اكتسح الساحة السنية خاصة فنقل الخطاب اللاعقل ليس فقط إلى مملكة البيان والبرهان، مملكة النقل ومملكة العقل، بل أيضا إلى المملكة العامة مملكة التقليد والتسليم، ذلك هو عصر الإنحطاط الذي سجل إستقالةالعقل العربي البياني و منه والبرهاني___.

أسس ومضامين المشروع النقدي للفكر العربي

لقد أسس مشروع الجابري النقدي للفكر العربي، على جملة من اليقينيات لا سبيل إلى فهمه من دون توضيح مضامينها.

– 1اتصال سؤال الحداثة بسؤال التراث، وقد تكوّن لديه هذا التصور وأخذ هيئته النظرية في كتابه نحن والتراث، وفي ما جاء في التراث والحداثة. في هذه الدراسات تبدو المعالم الكبرى لرؤية الجابري للموروث الفكري العربي، وهو يفصح عن الانتماء إلى ذلك الموروث، حيث نعيش في ذلك التراث وعليه وإن بشكل انحطاطي وخامد..، ويكون علينا التعامل مع هذا التراث بصفاء الرؤية وبُعد النظر لكي نتمكن من ربط حاضرنا بماضينا وضرورة الدخول في عالم العصر الذي يبدو أن هناك علاقة غلطاً بيننا وبين التراث تحول دون مواكبة العصر . حيث تتطلب القراءة الإبستيمولوجية ربط الجزء بالكل، وتحاول أن تربط بين عالم الفكر وعالم الواقع، فالتاريخ الإنساني الحديث والمعاصر، يُطلعنا على أن الحداثة الفكرية، والاجتماعية، تحققت في مناطق من المعمورة، باعتبارها عملية حضارية كبرى، ومن ثم فإن الحاجة ماسة في المجال الحضاري العربي الإسلامي للانخراط في الحداثة من دون شروط أو قيود.

– 2نقد التراث بالتزام برؤية معرفية، فالتحرر من السلطة المرجعية للتراث تتم من طريق إعادة استيعابه وتملكه وكشف محدوديته، وذلك بإعمال أدوات التحليل المعرفي ومناهجه في دراسة التراث وتحليل نصوصه ومنظوماته المعرفية.

وقد تبلور عن هذا المنهج المعرفي وجود خطابات تنظر إلى التراث بمنظار أيديولوجي (خطاب سلفي، يوظف التراث توظيفاً سياسياً لصالح تيار فكري وسياسي واجتماعي، وخطاب عدمي اغترابي يرفض التراث جملة ولا يعيش مشكلات الواقع العربي، يتناولها بفرضيات غير متناسبة وخصوصيتها التاريخية. إنه محكوم بنص آخر، وبسلطة سلف آخر غير سلطة التراثيين، ثم الخطاب الانتقائي، الذي يبحث في التراث عما يعتبر لحظات مشرقة تقدمية، أو مادية، كما يفعل الإحيائيون مع الأفكار التي تناسبهم.(

يبدأ الاستيعاب النقدي للتراث عند الجابري، من القطيعة مع هذه المقاربات الأيديولوجية الغارقة في منهج انتقائي تبرره الغاية التي من أجلها يبحث الأيديولوجيون في التراث.

– 3 تبني التحليل الإبستيمولوجي بأداوته ومفاهيمه في نقد التراث، لأنه الأقدر على تحليل بنى الثقافة والفكر..، والرغبة في تحرير الدراسات التراثية، من طغيان المنهج الوصفي الذي يتناول النص التراثي بطريقة مدرسية تقليدية، تتسم بنزعة تأويلية أيديولوجية تنصرف إلى مضمون أيديولوجي للنص بمعزل عن بنائه المعرفي مما لا يسمح بإنتاج معرفة بالمادة المدروسة.

وقد شكلت هذه العناصر القاعدة التي قام عليها المشروع النقدي للجابري في الإسلاميات وتاريخ الفكر العربي بحيث تساعد على فهم الخريطة المعرفية للمشروع والفرضيات النظرية التي أسست عليها أطروحات، في ضوء فهمه لمشكل التراث والحداثة.

فهو يريد الوصول إلى فهم عصري للتراث من منظور التعقل العلمي والموضوعي للموروث، وذلك يتم عبر تبني مناهج العلوم الحديثة، التي تمكن من الاستيعاب والتجاوز، والوصول من خلال الموضوعية العقلانية إلى وعي القطيعة المعرفية والتاريخية، وإلى الاتجاه نحو المستقبل من خلال ثورة معرفية، تضعنا في سياقات التغيير والتقدم.

رغم أن الجابري ينتقد بشدة النزعة الأيديولوجية في الثقافة العربية، إلا أن قراءته لم تتخلص من الدوافع الأيديولوجية، فالممارسات التوظيفية واضحة، بل إنها متلازمة مع الدوافع الأيديولوجية في مشروعه. وإذا كان القصد من القراءة الإبستيمولوجية توظيفها في النقد، من خلال تحليل البنية الثقافية بتحويل ثوابتها إلى تحولات، وبالتالي التحرر من سلطتها، وفتح المجال لممارسة سلطتنا عليها، فإن قراءته البنيوية سياقية وتاريخية أراد من خلالها فتح المجال لإمكان فهمها فهماً جديداً يؤدي إلى التجاوز؛ فتوظيف عمليات القراءة العصرية للتراث، لجعله عقداً مع المستقبل وليس قيداً في أسار الماضي، لا يخرج عن إطار القراءة الأيديولوجية ذات أهداف محددة، تحركها دوافع وأبعاد سياسية قومية، و استراتيجية وعالمية.

خصائص المشروع النقدي للجابري:

- اتسم المشروع الفكري لمحمد عابد الجابري (1936 – 2010) بكونه متسع الضفاف، متعدد المفاهيم، وطيد الأركان، أحاط بقضايا فكرية ومعرفية ومنهجية مختلفة.

- المشروع، في أبعاده المختلفة ومقارباته الإبستيمولوجية يؤسس رؤية نقدية عقلانية تروم إخراج المجتمعات العربية والإسلامية من الجمود والتقليد والتخلف الاجتماعي والثقافي والاستبداد السياسي، الذي يكبّل الإرادات ويعطل الفكر الخلّاق، ويحول دون تحديث البنى والذهنيات ويرهن حركة التطور والنهوض والتطلع نحو سبل التقدم، مما يحول دون الانخراط في الفاعلية التاريخية والعمران الحضاري.

- إن المشروع النقدي يتوخى صياغة معرفية تاريخية لمحتوى التراث الفكري والكشف عن بنية النظر ومضامينه، والخطاب وتشكلاته وتجلياته، ومدى تأثيره في الأوضاع السائدة السياسية والاقتصادية والثقافية والعلمية. ويندرج هذا المشروع ضمن رؤية تأصيلية تنطلق لفحص

ومساءلة التراث الفكري العربي الإسلامي لافتقاره إلى الرؤية الكلية التي تمنحه القدرة على إدارة المشكلات المعاصرة.

- إن الرؤية التأصيلية النقدية تُعتبر عملية مركّبة لفهم معاصر يؤسس للحظة حضارية جديدة يقوم بها الفكر والاجتهاد الخلاق في لحظة إبداع تاريخية. وذلك بفعل النهضة العلمية التي غيَّرت حياة الإنسان تغييراً تاماً، فأصبحت الظواهر الأدبية تفسر وتحلل لاستنباط قوانينها، واستكشاف الصلة بينها.

- فالبحث المنظم له قواعده وأصوله، ومناهجه التي بها يقرأ الباحث المنقِّب، النص الذي يريد أن يفهمه ويفسره ويحلله، لكي يستخلص خصائصه البيانية والمعرفية

- من هنا أهمية التحليل الابستيمولوجي في تحديث العقل العربي، وتجديد الفكر العربي الإسلامي، بحيث يتناول الثقافة العربية الإسلامية ككل قصد تحديد أساسياتها المعرفية والمنطقية التي شكلت العقل العربي..